الأمير شكيب أرسلان

المختار

من رسائل أبي اسحق ابراهيم بن هلال
ابن زهرون الصّابي

الدار التقدّمية

المختـار

من رسائل أبي اسحق ابراهيم بن هلال ابن زهرون الصّابي

الأمير شكيب أرسلان / المختار من رسائل أبي اسحق ابراهيم بن هلال ابن زهرون الصّابي

جميع الحقوق محفوظة

الدار التقدّمية

المختارة ـ الشوف ـ لبنان

هاتف: ٣١٠٥٥٥/٥ـ٩٦١ـ ٣١١٥٥٥/٥ـ٩٦١

E – mail: moukhtarainf@terra.net.lb

http : //www.daraltakadoumya.com

الطبعة الأولى / نيسان ٢٠١٠

كلمة لا بدَّ منها

إنَّ هذا التراث القيِّم مدين بالتنقيب عنه وجمعه وتنظيمه
إلى الأساتذة:
المرحوم الدكتور يوسف إيبش، والدكتور يوسف خوري،
والمحامي الأستاذ توما عريضه،
الذين لم يتوانوا عن شقّ المسافات الطوال وتكبُّد العناء
في السفر إلى أقطار عدّة في البلاد العربية والأوروبية
بحثًا واستقصاءً عن تلك المآثر المجيدة، التي، لولاهم،
لكانت ذكرى أمير البيان، الأمير شكيب أرسلان،
طيّ النسيان والضياع.
فلهم دائم العرفان لِما بذلوه من تضحيات في سبيل جمع
هذا التراث ونقله.

الدار التقدّمية

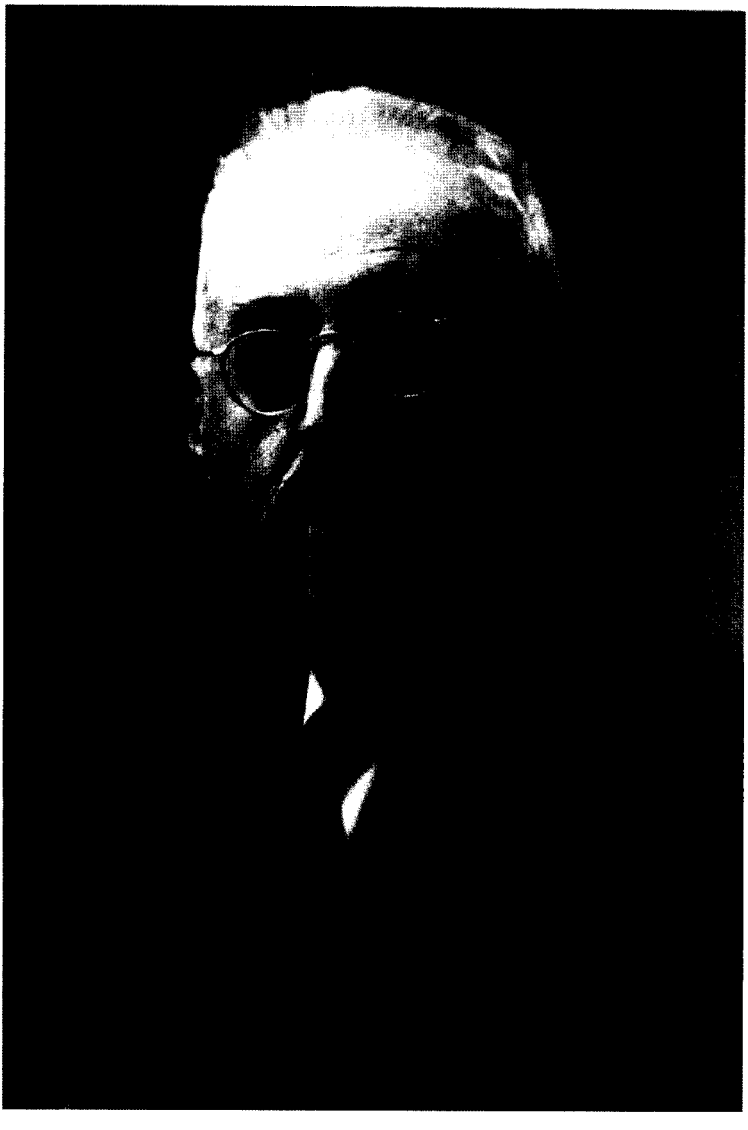

أمير البيان

الأمير شكيب أرسلان

١٨٦٩ - ١٩٤٦

مقدّمة الناشر

نشأ (أسلوب الرسائل) في القرن الثامن للميلاد، على يد عبد الحميد الكاتب، الذي كان رئيس ديوان الرسائل في بلاط الأُمويين. وشاع فنّ هذا الأسلوب منذ ذلك العهد، ومن بين القلائل الذين لمعت أسماؤهم، في هذا الفنّ البياني، « أبو اسحق ابراهيم بن هلال الصابي (الصابئ)» (٩٢٥ـ٩٩٤)م؛ الذي اشتُهر برسائله المتميّزة، وسبكه الرائع، وأسلوبه البليغ، حتّى أضحت رسائله علمًا يتدارسه المترسِّلون، ويقتبسون من دقّة تصويره وسلامة لغّته وجمال تعبيره، طوال تسعة قرون. فضلاً عن أنَّ تلك الرسائل، كانت تاريخًا لحقبةٍ من عصر دولة (بني بويه)، التي حكمت في اصفهان وشيراز وكرمان وبغداد من سنة ٩٣٢ إلى سنة ١٠٥٥م، وكان مشاهير وزرائها من الشعراء والأدباء، كالمُهلِّبي وابن العميد، والصاحب بن عبّاد.

وإنّنا لنجد، وراء اختيار الأمير شكيب أرسلان، لهذه الرسائل، عاملين: عامل الحسّ الفنّي والذوق الأدبي، عنده، وعامل التعلّق بكلّ حقبةٍ، ارتفعت فيها راية الإسلام.

تمثّل الذوق الأدبي فيما طغى على رسائل الصابي (الصابئ) من معاني الجلال ومثالات الجمال، وبما اجتمع في كاتبها من حسن الذات والصفات، كما تمثّل التعلّق بانتصار الإسلام وسماحه، في المواقف السياسية التي ساقها الصابي (الصابئ) في رسائله باسم وزراء بني بويه؛ وقد دخل الأمير شكيب في تفاصيلها دخول من يُحسن الاطّلاع على دقائقها والاضطلاع بحقائقها؛ فعلّق حواشيها التاريخية، بيده، واستحضرها حيّةً في كتابه، كأنَّ حياة ذلك العصر ماجت أمامه بين السطور، فانفعل بها رغم بعد عصره عنها، فعِزّ الإسلام وحسّ الأدب موصولان بمشاعر أمير البيان، لا يضعفهما مرور الأزمان ولا كرور الأعوام، وهو الذي طوى فيهما مراحل الشباب وأنفق عمره لهما بغير حساب.

إنَّ الدار التقدّمية، إذ تضع في يد القارئ العربي هذا الكتاب، تدين لمؤلّفه المغفور له الأمير شكيب أرسلان، بإشراق سطوره وانبثاق نوره.

وهو الأولى بفضله والأحرى بمثله والناطق بذكره.

الدار التقدّمية

في، ٩ كانون الثاني ٢٠١٠

قال بعضهم:

أصبحتُ مشتاقًا حليفَ صبابةٍ ... برسائل الصابي أبي اسحاقِ

صَوب البلاغة والحلاوة والحِجى ... ذَوب البراعة سلوة العشاقِ

طورًا كما رقَّ النسيم وتارةً ... يحكي لنا الأطواق في الأعناقِ

لا يبلغ البلغاءُ شأْوَ مُبَرِّزٍ ... كُتِبت بدائعهُ على الأحداقِ

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدّمة

أول مصدَّر به فاتحة كلّ كلام، وأولى مقدَّم في طليعة كلّ نظام، حمدُ الله وتمجيده، وتقديس الذات وتوحيده، حمدًا يستمري الصنيع ويستزيده، ويستجدي المزيد ويستجيده، على أفئدةٍ أفاض بياض الهدى على سويداواتها[1]، وألسنةٍ أسال لُهى الفصاحة على لَهواتها، وكتاب أنزله تعالى بأجزل مناطقها وأفصح لغاتها، على المختار في الأمم من صميم عُرْبها، والمبعوث إلى الكُرة من قطبها إلى قطبها، الذي أشرقت به الأرض بنور ربّها، وأشرق بفتوحاته أودية شرقها وفلَّ من غَرب[2] غربها، صلّى الله عليه وآلِه صلاةً كما يرضاه لنبيّه، وصلّى على كلّ نبيّ وآلِه وحواريه، ما ألقحت الرياح المُزْنَ[3] وأردف الوَسْميّ[4] بوَلِيه[5].

وبعد، فإنَّ من أطرف ما تطرف به أندية الأدب، ويُنثَل من كنائن[6] البلاغة في خزائن العرب، وينشر من بين صفائح الصحائف بعد أن طال ما طوى واحتجب، المختار من رسائل الصابي المشهور المكنّى بأبي اسحاق رئيس كتاب الديوان ببغداد، والذاهب صيته إلى بَرْك الغِماد[7] في الآفاق؛ إذ كان كلامه من أجل ما ألقحته أصلاب الأقلام وحملت به بطون الأوراق، وإنَّ كلّ مَن أصاب من الأدب ذِروًا[8] وعرف للقلم بَريًا وللمداد جريًا، ليصبو إلى بيان الصابي وينتشي بإنشائه العالي. فهو ينظر فيه من خطط البلاغة ومراسمها، ويشهد من محافل الفصاحة ومواسمها، ما يعزّ الإتيان بمثل بدائعه على رائمها[9]، وتخفر عذارى

---

(١) سويداواتها، مفردها سُوَيْداء، وسُوَيْداء القلب: حبَّته.

(٢) الغَرب، غرب السيف: حدَّه، وهو المقصود ها هنا.

(٣) المُزن: السحاب، أو ذو الماء منه.

(٤) الوسميّ: أول مطر الربيع.

(٥) بوَلِيه، تقول: وُليَ المكان: إذا مُطِرَ بالوليّ، وهو المطر بعد المطر.

(٦) كنائن، كنَّ الشيء: ستره وأخفاه، وقوله: يُنثَل من كنائن البلاغة (مجازًا) يُستخرج من أسرارها.

(٧) بَرْك الغِماد: هو موضع في اليمن، وقيل؛ بقعة في جهنّم، والمقصود به المكان البعيد.

(٨) ذِروًا، من ذِروة: المكان المرتفع.

(٩) رائمها: كلّ مَن لَزِمَ شيئًا وألِفه وأحبّه، فقد رَئِمَه.

خطبه دون خاطب كرائمها، ويتلو من آيات كتاب الدواوين وخطباء النوادي، ما تنسخ به جمل حُداة المهاري [1] ورعاة البوادي، فإنَّ هذه عيال في حسنها على جزالة المباني وفحولة الألفاظ، وإنَّ أعلى ما فيها، ما ورد من المفاخرة والمماتنة [2] في سوق عكاظ، وما ندَّ عن ذلك فيكاد لا يخرج عن أوصاف الأحداج والأكوار [3]، ولا يتعدّى مرامي الصعاليك في الموامي والقفار، وما ماثل ذلك ممّا لم يكن سواه بين أعاريض المضارب [4] عند سكّان الأوبار [5]. وإنَّ تلك جامعة بين متانة التعبير ورصانة الكلام، وبين نبالة الموضوع وفخامة المقام، ممّا تلتفّ على قرائته الجحافل والفيالق، ويُصات به في أبهاء القصور الشواهق، ما بين العُمَد [6] والأساطين [7] في حضرة الخلائف والسلاطين، يدور عليه ترتيب الولايات والممالك، وترتبط به مرابطة الثغور وسيطرة المسالك، وإنَّ من أقرح [8] جياد هذا المضمار وأنبل رُماة هذا المرام، صاحب هذه الرسائل البديعة، الذي بذّ في الإنشاء خُوارزميَّه [9] وبديعه [10]، فما زالت الكُتّاب تضرب بيراعته [11] الأمثال، وتَحتذى من براعته على مثال، وآثاره مع ذلك متفرّقة شتات وواصلة إلى أيدي الطالبين أرسالاً وثُبات [12]، وهم صابون إلى مجموع يتمتّع الناظر منه بجميع غرره، وينتظم في سمط [13] واحد نفائس دُرَره. فحيث كنت من المنقّبين عن هذه الطبقة حبًّا بنشر آثارها، ورغبة في بروز تلك العرائس من أخدارها، أَظْفَرني الجدّ وأنا في دار الخلافة، بهذه النسخة النفيسة في إحدى المكاتب، مشتملة على أحسن ما دُوّن من فصول هذا الكاتب، فاجتهدت في إبراز ذلك الأثر للعين، بعد أن علّقت عليه ما يناسب من شرح

---

(١) حداة المهاري، حُداة، مفردها حادي: سائق الإبل، والمهاري: إبل كريمة منسوبة إلى مَهْرة بن حَيْدان.

(٢) المماتنة (في الشعر): المعارضة والمغالبة.

(٣) الأحداج والأكوار: شؤون الإبل والديار وحَسْب، من حدج الناقة الذي يُشَدّ على ظهرها. وأكوار البلاد مواضع معلومة فيها وفي سلاحها.

(٤) أعاريض المضارب: أوتاد الخيام.

(٥) سكّان الأوبار: البدو، لأنهم يسكنون في خيام من وبَر.

(٦) العُمَد، مفردها عُمْدَة: ما يُعتمد عليه ويُتّكل.

(٧) الأساطين: أفراد الزمان وحكماؤه.

(٨) أقرح، جواد أقرح: في جبهته بياض بقدر الدرهم، أو دونه.

(٩) خوارزميّه: نسبة إلى « أبي بكر الخُوارزمي » (٩٢٨م ـ ٩٩٣م) وهو عالِم من كبار الكُتّاب.

(١٠) بديعه: نسبة إلى « بديع الزمان الهمذاني » (٦٩٨ م ـ ١٠٠٧م) وهو شاعر من أئمّة الكُتّاب.

(١١) اليراعة: القلم.

(١٢) أرسالاً وثبات: تصل كالحُجَج رَسْلاً بعد رسل، حاملة برهانها، بذاتها.

(١٣) السمْط: الخيط ما دام الدر منتظمًا فيه.

الوقائع وذيّلته بما يلزم من تفسير الغريب، تتميمًا للفائدة، وإجزالاً للعائدة، ووقوفًا بالقارئ على أسرار الكلام وأنحائه، وما يطوى من الحكم والنكت في أثنائه، خصوصًا وأنَّ أكناه[1] الأسباب ضروريّ لتفهّم المسائل، وأنَّ معرفة الوقائع التاريخية تزيد في حلاوة الكتب والرسائل. فيأخذ الناظر من حواشي هذا الكتاب ملخّص تاريخ من بني بويه، وتأتي هذه الرسائل عضدًا للتاريخ مصدّقة لِما بين يديه. وها أنا ذا أرجو من أرباب النظر أن يتغمّدوا[2] ما يرون من مزل القلم، بما يعلمون من حسن القصد، اللّهم إنّي أبرأ إليك من العصمة والقوّة، وأنت وحدك من وراء القصد.

(١) أكناه، مفردها كُنْه: وهو جوهر الشيء وأصله وحقيقته.

(٢) يتغمّدوا: (ها هنا) بمعنى يستروا ويغضّوا الطرف عن سَقْطَة القلم.

ترجمة حال الصابي

هو ابراهيم بن هلال بن هرون الحرَّاني، قال في حقّه أبو منصور الثعالبي: هو أوحد العراق في البلاغة، ومن به تُثنى الخناصر في الكتابة، وتتّفق الشهادات له ببلوغ الغاية من البراعة في الصناعة. وكان قد بلغ التسعين في خدمة الخلفاء وخلافة الوزراء، وتقلّد الأعمال الجلائل مع ديوان الرسائل، وحلب الدهر أشطُرَهُ[1]، وذاق حلوه ومُرَّه، ولابس خيره ومارس شرّه، ورئس ورأس، وخَدم وخُدم، ومدحه شعراء العراق في جملة الرؤساء، وشاع ذكره في الآفاق، ودُوِّنَ له من الكلام البهيّ النقيّ العُلوي ما تناثرت دُرره وتكاثرت غُرره، وممّا قيل فيه:

يـا بؤس مَن يُمني[2] بدمعٍ ساجمٍ ... يَهمي على حُجُبِ الفؤاد الواجمِ

لـولا تـعـلّلـه بـكـأس مُـدامـةٍ ... ورسـائلِ الصـابي وشِعر كُشَـاجِمِ[3]

وكان الصابي نصرانيًّا ولكنّه كان يعاشر المسلمين أحسن عشرة، ويصوم معهم شهر رمضان ويحفظ القرآن الكريم حفظًا يدور على طرف لسانه وسِنّ قلمه. وكان في أيام شبابه واقتباله، أرخى بالاً وأنعم حالاً منه في أيام استكماله، وفي زمن اكتهاله أسعد جدًّا منه حين مسّه الكبر، وفي ذلك يقول من قصيدة كتب بها إلى الصاحب بن عباد يشكو بثّه وحزنه ويستمطر سحابه ومُزنَهُ، بعد أن كان يخاطبه بالكاف ولا يرفعه عن رتبة إلاّ كاف.

عجبًا لِحظّي إذ أراه مصاحبي ... عصرَ الشباب وفي المشيب مُغاضِبي

أمنَ الغـوانـي كـان حتّى خـاننـي ... شيخًـا وكان لدى الشبيبة صاحبي

أَمَعَ التضعضع ملَّني متجنّبًا ... ومع الترعرع كـان غير مُجانبي

يـا ليتَ صَبوتَـهُ إلـيَّ تأَخّرَت ... حتّى تـكـونَ ذَخـيـرةً لِـعـواقِبي

---

(١) حَلَبَ الدهر أشطره أي خَبَرَ ضروبه، يعني أنه مرّ به خير الدهر وشرّه، وهناوه وشقاوه، تشبيهًا بحلب جميع أخلاف الناقة.

(٢) يُمني: يُنزِل، والدمع الساجم: السائل قليلاً أو كثيرًا، أصلها السجم وتعني الماء كما تعني العين. والإمناء لا يكون إلاّ في السوائل.

(٣) كُشاجم: المتوفّى نحو سنة (٩٦٠م)، هو شاعر ومنشئ عراقي المولد فارسيّ الأصل، مدح الحمدانيين، وله ديوان شعر، وكتاب «أدب النديم».

وكان المُهَلَّبيّ[1] لا يرى الدنيا إلاّ به، ويعجب جدًّا ببراعته ويستدعيه في أوقات أنسه، فلمّا مات المُهَلَّبيّ اعتُقل في جملة عمّال المُهَلَّبي وأصحابه، فمن قوله في الاعتقال من قصيدة:

يا أيها الرؤساء دعوة خادمٍ ... أوفَت رسائله على التعديدِ
أيجوز في حكم المروءة عندكم ... حبسي وطول تهددي ووعيدي
أنسيتم كُتبًا شَحَنتُ فصولها ... بفصول دُرٍّ عنكم مَنضودِ
يهتزّ سامعهنّ من طربٍ كما ... هزّ النديمَ سماعُ صوت العُودِ

ومنها:

قَصرت خطاه خلاخِل من قيده ... فتراه فيها كالفتاة الرُّوْدِ[2]
يمشي الهُوَينا[3] ذلةً لا عزّةً ... مَشيَ النزيف الخائف المَزْؤدِ[4]

ولمّا خُلِّي عنه وأعيد إلى عمله، لم يزل يطير ويقع وينخفض ويرتفع، إلى أن دُفع في أيام عضد الدولة، إلى النكبة العظمى والطامّة الكبرى؛ إذ كان في صدره حزازات كثيرة من إنشاءآت له عن الخليفة وعن بختيار، نقَمها منه واحتقدها عليه، قيل كان من أقوى أسباب تغيّر عضد الدولة على أبي اسحق بعد ميله إليه وضنّه به، فَصَلَ له من كتاب أنشأه عن الخليفة في شأن بختيار وهو «وقد جدّد له أمير المؤمنين مع هذه المساعي السوابق، والمعالي السوامق، التي يلزم كلّ دانٍ وقاصٍ وعامٍّ وخاص أن يعرف له حقّ ما أُكرم به منها، ويتزحزح عن رتبة المماثلة فيها». فإنَّ عضد الدولة أنكر هذه اللفظة أشدّ إنكار ولم يشك في التعريض به، وأسرّها في نفسه، إلى أنَّ ملك بغداد وسائر العراق، وأمر أبا اسحق بتأليف كتاب في أخبار الدولة الديلمية يشتمل على ذكر قديمه وحديثه، فامتثل أمره وسمّى كتابه بالتاجيّ، نسبة إلى تاج الملّة، من ألقاب عضد الدولة، وأخذ يشتغل في تصنيفه، وينفق عليه من روحه. فرُفع إلى عضد الدولة، أنَّ صديقًا للصابي دخل عليه فرآه في شغل شاغل من التسويد والتبييض، فسأله عمّا يعمل فقال، أباطيل أُنمّقها وأكاذيب أُلفّقها، فانضاف تأثير

(١) المُهلّبي: هو « الحسن بن محمّد » المتوفّى سنة (٩٦٣م)، شاعر وأديب من كبار وزراء معزّ الدولة البُويهي.
(٢) الرود: التمهّل في المشي.
(٣) الهُوَينا: الرفق، والنزيف (ها هنا): السكران.
(٤) المزود: الخائف أشدّ الخوف.

هذه الكلمة في قلب عضد الدولة إلى ما سبق من حقده على أبي اسحق، وتحرّك لها كامِن ضِغنه، فأمر أن يلقى تحت أرجل الفِيَلة، فأكبّ جماعة من أرباب الديوان على الأرض، يقبّلونها بين يديه ويشفعون إليه، إلى أن أمر باستحيائه مع القبض عليه واستصفاء أمواله. فبقي في الاعتقال بضع سنين إلى أن تخلّص في آخر أيام عضد الدولة، وقد ساءت حاله وتهتّك ستره، وكان الصاحب بن عباد يحبّه أشدّ الحبّ ويتعصّب له ويتعهدّه، على بعد الدار، بالمنح، والصابي يخدم حضرته بالمدح، وكان الصاحب يتمنّى انحيازه إليه وقدومه عليه، ويضمن له الرغائب على ذلك إمّا تشوّقًا أو تشرّفًا، والصابي يحتمل ثقل الخلّة وسوء أثر العطلة، ولا يتواضع للاتّصال بجملة الصاحب بعد كونه من نظرائه. وكان الصاحب كثيرًا ما يقول كتاب الدنيا وبلغاء العصر أربعة، الأستاذ ابن العميد وأبو القاسم عبد العزيز بن يوسف، وأبو اسحق الصابي، ولو شئت لذكرت الرابع يعني نفسه، فأمّا الترجيح بين هذين الصادين أعني الصاحب والصابي، فقد خاض فيه الخائضون، ومن أشفّ ما سمعته من ذلك، أنَّ الصاحب كان يكتب كما يريد والصابي يكتب كما يُراد، وبين الحالين بون بعيد. وكيف جرى الأمر فهما هما، ولقد وقف فلك البلاغة بعدهما، ثمَّ ذكر المترجم نبذًا من نثره، ستأتي في المختار من رسائله، ونخبًا من نظمه، اخترنا منها ما يأتي قال:

لست أشكو هواك يا من هواهُ ... كلّ يوم يَروعني منه خَطْبُ
مُرُّ ما مَرَّ بي من أجلك حلوٌ ... وعذابي في مثل حبّك عَذْبُ

وقال:

إن نحن قسناك بالغصن الرطيب فقد ... خفنا عليك به ظلمًا وعُدوانا
الغصن أحسن ما تلقاه مكتسيًا ... وأنت أحسن ما نلقاك عُريانا

وقال:

مرضت من الهوى حتّى إذا ما ... بدا ما بي لإخواني الحضورِ
تكَنَّفني ذوو الإشفاق منهم ... ولاذوا بالدعاء وبالنذورِ
وقالوا للطبيب أَشِرْ فإنّا ... نعدّك للمهمّ من الأمورِ
فقال شِفاؤه الرُّمان ممّا ... تضمنه حشاه من السعيرِ
فقلت لهم أصاب بغير عَمدٍ ... ولكن ذاك رُمَّانُ الصدورِ

وقال في شمامة كافور:

وشمامة كالبدر عند اعتراضهِ ... وكالكوكب الدريِّ عند انقضاضهِ
يودُّ سواد العين من شَغَفٍ بها ... لو اعتاضها مستبدلاً ببياضهِ

وقال:

ومحرورة الأحشاء تحسب أنها ... متيّمةٌ تشكو من الحبّ تبريحا
تناجيك نجوى يسمع الأنف وحيها ... وتجهله الأذن السميعة إذ يُوحى
تَحرّق فيها النّدّ[1] عَودًا وبدأةً ... فتأخذهُ جسمًا وتَنفثه روحا

ومن قوله مفتخرًا:

وقد علم السلطان أني أمينهُ ... وكاتبه الكافي السديد الموفّقُ
أُوازره فيما عَرا وأمده ... برأيٍ يريه الشمسَ والليلُ أَغْسَقُ
يجدّد بي نهج العلى وهو دارسٌ ... ويفتح بي باب الهدى وهو مغلقُ
فيمناي يُمناه ولفظي لفظه ... وعيني له عين بها الدهر يرمقُ
ولي فِقَرٌ تُضحي الملوك فقيرةً ... إليها لدى إحدائها حين تطرقُ
أردُّ بها رأس الجَموح فينثني ... وأجعلها سَوط الحَرون[2] فيعنقُ[3]
فإن حاولت لطفًا فماءٌ مُروَّقٌ ... وإن حاولت عنفًا فنار تَأَلَّقُ
يُسلم لي قُسّ[4] وسَحبان[5] وائلٍ ... ويَرضى جريرٌ مذهبي والفرزدق[6]
فَيغْضي لنثري خاطب وهو مِصْقَعٌ ... ويَعنو لنظمي شاعر وهو مُفَلِقُ
مقال لو الأَعشى رآهن لم يقل ... وبات على النار الندى والمحلقُ

---

(١) الندّ: عُود طيّب الرائحة، لا يجود بطِيبه إلاّ إذا احترق.
(٢) الحَرون: المُمسِك عن السير، الصعب الانقياد.
(٣) يعنق: يسير سيرًا واسعًا.
(٤) قُسّ: خطيب جاهلي من حكماء العرب، كان أسقف نجران.
(٥) سَحبان: هو سحبان وائل المتوفّي سنة (٦٧٤م)، خطيب فصيح، ضُرب به المثل.
(٦) جرير والفرزدق: شاعران أُمويّان معروفان.

ومن قوله في المُهَلَّبي الوزير:

قل للوزير أبي محمَّد الذي ... قد أعجزت كلّ الورى أوصافُهُ
لك في المحافل منطق يشفي الجوى ... ويَسوغ في أُذْن الأديب سُلافُهُ[1]
فكأنَّ لفظك لؤلؤٌ مُتَنخَّلٌ ... وكأنّما آذاننا أصدافُهُ

وقال في الملك عضد الدولة:

لا تحسب الملك الذي أُوتِيته ... يُقضى وإن طال الزمان إلى مدى
كالدَّوح في أفق السماء فُروعه ... وعُروقه مُتَوَلِّجاتٌ في الندى
في كلّ عام يَستجد شَبيبة ... فيعود ماءُ العودُ فيه كما بدا
حتّى كأنّك دائرٌ في حلقةٍ ... فَلَكيةٍ في مُنتهاها المُبتدا

ومن شعره:

تَشابه دمعي إذ جرى ومُدامتي ... فمن مثل ما في الكاس عيني تسكبُ
فوالله ما أدري أَبالخمر أُسبلت ... جفونيَ أم من عَبرةٍ كنت أَشربُ

وهو شاهد عند أهل البيان على ترك التشبيه، والعدول إلى الحكم بالتشابه، ليكون كلّ واحد من الشيئين مشبَّهًا أو مشبَّهًا به، احتزازًا من ترجيح أحد المتساويَين في وجه الشبه.

ومن قوله في مَن لا يخلو منهم زمان:

أيها النَّابح الذي يَتصدّى ... بقبيحٍ يقوله لِجَوابي
لا تؤمّل أني أقول لكَ إخسأ ... لستُ أسخو بها لِكُلّ الكلابِ

ومع متانة شعره، فنثره أسمى طبقة، ولمّا توفّي الصابي، رثاه الشريف الرضي، بقصيدة طويلة مطلعها:

أَعَلِمْتَ مَن حُمِلوا على الأعوادِ ... أَرأيت كيف خَبا ضِياءُ النادي

منها:

الفضل ناسَبَ بيننا إذ لم يكن ... شرَفي مناسِبَهُ ولا ميلادي

---

(١) السلافة: الخمرة.

إن لم تكن من أُسرتي وعشيرتي فلأَنتَ أَعلقُهم يدًا بفؤادي

أو لا تكن عالي الأُصول فقد وفى عَظْمُ الجدود بسُؤدَدِ الأجدادِ

ورثاه بغير ذلك، وقد ليم على رثائه، فقال، إنّي رثيت عِلمه، والصحيح أنَّ الصابي كان يودّه ويرشحّه للخلافة كما هو معروف في الكتب.

انتهى ملخّصًا عن الثعالبي وغيره بتصرّف.

بسم الله الرحمن الرحيم

وعليه توكلت

نسخة كتاب أنشأه أبو اسحق ابراهيم بن هلال الصابي عند فتح بغداد وانهزام المماليك عنها[1] في جمادى الأولى سنة أربع وستّين وثلثمائة بشرح الحال ووصف الخلاف

(١) سنة ثلاث وستّين وثلثمائة شبّت الفتنة بين الأتراك والديلم بالأهواز، وسببها أنَّ عزّ الدولة بختيار بن معزّ الدولة بن بويه، قلّت الأموال لديه وكثر إدلال جنده عليه، فأخذ يفكّر في حيلة يجتبي بها مالاً. فخرج إلى الأهواز ونزل على بختكين آزادرويه متولّيها، فاتّفق أثناء مقامه بها أنَّ بعض غلمان الديلم تنازعوا مع بعض غلمان الأتراك من أجل بناء معلف للدواب، فجرى من ذلك فتنة أدّت إلى قتل كثيرين من قوّاد الفريقين، وعندها أشار الديلم على بختيار باعتقال رؤساء الأتراك لتصفو له البلاد، فاعتقل آزادرويه في جماعة وأطلق الديلم في الأتراك وأباح دماءهم، واستولى على إقطاع سبكتكين التركي، صاحب الجيش ببغداد. فلمّا وصل الخبر إليه حصر دار بختيار وأحرقها واعتقل أخويه ووالدته، فسألوه الانحدار إلى واسط فأذن لهم وأوقع بالديلم، وانتصر لسبكتكين أهل السنّة وثاروا بالشيعة وأحرق الكرخ. ولمّا بلغ ذلك بختيار وكان قد جاء مشايخ الأتراك من البصرة، فعاتبوه على مبادأته لهم بالعدوان وقال له العقلاء من قومه الديلم: لا بدّ لنا في الحروب من الأتراك لأجل الرمي بالنشاب، اضطرب رأيه وأطلق آزادروية وجعله رئيس الجيش مكان سبكتكين وأفرج عن الباقين، وسار إلى إخوته بواسط وكتب إلى عمّه ركن الدولة وإلى ابن عمّه عضد الدولة وإلى أبي تغلب بن حمدان وإلى عمران ابن شاهين، يسألهم النجدة على سبكتكين، فجهّز ركن الدولة عسكرًا مع وزيره أبي الفتح بن العميد وكتب إلى ولده عضد الدولة يأمره بالمسير لنصرة ابن عمّه فوعد وتخلّف، متربّصًا ببختيار الدوائر طمعًا في ملك العراق، وأرسل أبو تغلب أخاه الحسين بن ناصر الدولة إلى تكريت في جيش وانتظر انحدار الأتراك عن بغداد، فلمّا انحدروا دخل المدينة فكفّ الفساد وكان الأتراك قد أخرجوا الخليفة الطائع لله وأباه المطيع المستقيل، فلمّا وصلوا إلى دير العاقول، توفّي المطيع ومرض سبكتكين وتوفّي، وسرّ بذلك عزّ الدولة بختيار، فقدم الأتراك عليهم الفتكين من موالي معزّ الدولة أبي بختيار، فناشبه القتال واستمرّ خمسين يومًا والغلبة فيها للأتراك، واشتدّ الحصار على بختيار، فوالى إنفاذ الرسل إلى ابن عمّه عضد الدولة يستصرخه وكتب إليه:

فإن كنتُ مأكولاً فكن أنت آكلي ... وإلاّ فـأدركـني ولـمـا أُمـزّق

ولمّا رأى عضد الدولة أنَّ الأمر بلغ ببختيار ما كان يرجوه، سار نحو العراق نجدة له في الظاهر وطموحًا إلى ملكه في الباطن، واجتمع بابن العميد وزير أبيه ركن الدولة القادم بعساكر الريّ، وقصدوا واسط. فلمّا سمع الفتكين بخبر وصولهم عاد إلى بغداد وتهيّأ للقتال، فزحف عضد الدولة إلى دار السلام من الجانب الشرقي وأمر بختيار ابن عمّه أن يسير في الجانب الغربي، وكتب بختيار إلى ضبة بن محمَّد الأسدي من أهل عين التمر، وهو الذي هجاه المتنبّي في قوله « ما أنصف القوم ضبه » إلخ، أن يغير على أطراف المدينة، وكان ابن حمدان من ناحية الموصل يمنع عنها الميرة، فضاق بأهلها الخناق وثارت العامّة، وكبس الجند المنازل بطلب القوت وصمد عضد الدولة إلى الفتكين. فالتقى الجمعان بين ديالي والمداين، فانهزم أصحاب الفتكين وقتل منهم خلق كثير وغرق منهم أثناء الهزيمة من الزحام على نهر ديالي، وذلك رابع عشر جمادى الأولى سنة أربع وستّين وثلثمائة. وساروا إلى تكريت، ودخل العضد بغداد وكان الخليفة الطائع قد خرج مع المماليك كرهًا، فردّه عضد الدولة وأقرّه على سرير الخلافة وأعاد من تعظيم الخلافة ما كان ترك ونسي، ولمّا استوسق له الأمر أثار فتنة بين بختيار ووعده بالنصرة عليهم، وأشار عليه بالغلظة لهم، وأن يعرّفهم أنه لا يريد الإمارة، وأنه متى أعلن ذلك رضي الجند. وتوسّط عضد الدولة بينهم على ما يريد بختيار، فوقع بختيار في الشرك وأظهر الاستعفاء، فقبض عضد الدولة عليه وعلى إخوته في السادس والعشرين من جمادى الأولى وأعلن عجزه عن الإمارة، وقد التجأ إلى هذه الحيلة خوفًا من أبيه ركن الدولة. فلمّا بلغ الخبر أباه أنكر ذلك إنكارًا شديدًا، وقيل إنّه ألقى بنفسه عن سريره إلى الأرض وأخذ يتمرّغ عليها وامتنع من الأكل والشرب، ومرض من الغمّ مرضًا لازمه بقيّة عمره، وذلك وفاء مع ابن أخيه. وأرسل يأمر عضد الدولة بالخروج حالاً من بغداد وإعادة بختيار إلى ملكه، وكان المارزبان بن بختيار والي البصرة =